الصاعقة الرابعة بعد المئة: ذِكرُ الصبى ومراتع الآرام(*)

ذِكَـــرُ الصـــبى ومـــراتِعِ الآرامِ ... جلبتْ حمامي قبلَ وقتِ حِمامي

دمنٌ تكاثرتِ الهـمـومُ عليّ في ... عـرصـاتِهـا كـتكاثرِ اللوّامِ

وكـأنَّ كلَّ سـحـابةٍ وقـفتْ بهـا ... تبكي بعـينيْ عـروةَ بنِ حـزامِ

ولطالما أفنيتُ ريقَ كـعـابِهـا ... فـيـهـا وأفنتْ بالعتابِ كلامي(١)

قـد كنتَ تهـزأُ بالفـراقِ مـجـانةً ... وتجـرّ ذيليْ شـرةٍ وعُـرَامِ

ليسَ القـبـابُ على الرِّكـابِ وإنما ... هنَّ الحـيـاةُ ترحَّلتْ بسَـلامِ

ليتَ الذي فلقَ النوى جعلَ الحصى ... لخـفـافـهنّ مـفـاصلي وعِظامي

مـتـلاحظين نسحّ مـاءَ شـؤوننا ... حـذراً منَ الرقـبـاءِ في الأكـمَـامِ(٢)

أرواحُنا انهـملتْ وعـشْنا بعـدَها ... منْ بعـدِ مـا قطرتْ على الأقـدامِ

لو كُنَّ يومَ جـرينَ كنَّ كـصـبـرِنا ... عند الرَّحـيلِ لكنْ غـيـرَ سـجَـامِ

لم يتـركـوا لي صـاحـبًـا إلا الأسى ... وذمـيـلَ ذعلبـةٍ كـفـحلِ نَعَـامِ(٣)

وتعـذُّرُ الأحـرارِ صـيَّـر ظهـرَها ... إلا إلـيـكَ عليّ ظـهـرَ حَـرَامِ

أنـتِ الغـريبـةُ في زمـانٍ أهلُهُ ... وُلِدَتْ مكارمُـهُمْ لغـيـرِ تَمامِ

(*) مناسبة القصيدة: قالها يمدح سيف الدولة، ويذكر إيقاعه بعمرو بن حابس وبني ضبة.

(١) المجانة: الهزل وعدم المبالاة. الشرة: الحدة والبطر. العرام: الشراسة.

(٢) الشؤون: مجاري الدموع.

(٣) الزميل: ضرب من سير الإبل. الذعلبة: الناقة السريعة.

أكـثـرْتَ منْ بذلِ النوالِ ولمْ تزلْ ... عَلَمًـا على الإفـضـالِ والإنعَـامِ
صغَّرْتَ كلَّ كبيرةٍ وكبرْتَ عنْ ... لكأنَّهَ وعـدَدْتَ سنَّ غُـلامِ
ورفلتَ في حللِ الثناءِ وإنما ... عـدمُ الثناءِ نهـايةُ الإعـدامِ
عيبٌ عليكَ تُرى بسيفٍ في الوغى ... ما يصنعُ الصمصامُ بالصّمصَامِ
إن كانَ مثلُكَ كانَ أو هو كائنٌ ... فـبـرئتُ حـينئـذٍ من الإسـلامِ
ملكٌ زهتْ بمكانه أيامُـهُ ... حـتى افـتـخـرنَ به على الأيّامِ
وتخـالُهُ سلبَ الورى منْ حلمِـه ... أحـلامَـهُم فـهُمُ بلا أحـلامِ
وإذا امتحنتَ تكشّفَتْ عـزماتهُ ... عـنْ أوحـديّ الـنقضِ والإبـرامِ
وإذا سـألتَ بنانَهُ عنْ نيلِه ... لم يرضَ بالدنيا قـضـاءَ ذِمَـامِ
مـهـلًا ألا للهِ مـا صنَعَ القنا ... في عمرو حابِ وضبّةَ الأغتَامِ[1]
لما تحكمتِ الأسنةُ فـيـهم ... جـارتْ وهنَّ يجـرن في الأحكامِ
فتركتَهُمْ خللَ البيوتِ كأنما ... غـضبتْ رؤوسهُمُ على الأجسَامِ
أحـجـارُ ناسٍ فـوقَ أرضٍ منْ دمٍ ... ونجـومُ بيضٍ في سـمـاءِ قَـتَـامِ
وذراعُ كلّ أبي فُـلانٍ كنيـةً ... حـالتْ فصاحِبُها أبو الأيتَامِ
عـهدي بمعركةِ الأميرِ وخيلُهُ ... في النقعِ محجمةٌ عن الإحجامِ
صلى الإلهُ عليكَ غـيـرَ مـودَّعٍ ... وسقى ثَرى أبويْكَ صوبَ غَمَامِ

(١) الأغتام: الذي في منطقهم عجمة.

وكساكَ ثوبَ مهابةٍ مِنْ عندِه ... وأراكَ وجهَ شقيقكَ القَمقَامِ[١]

فلقدْ رمى بلدَ العدوِّ بنفسِه ... في روقِ أرعنَ كالغطمِ لُهَامِ[٢]

قومٌ تفرَّست المنايا فيكُمُ ... فرأتْ لكمْ في الحربِ صبرَ كِرَامِ

تاللهِ ما عَلِمَ امرؤٌ لولاكمُ ... كيفَ السخاءُ وكيفَ ضربُ الهَامِ

(١) القمقام: السيد.

(٢) الروق: القرن. الغطم: البحر العظيم. اللهام: الجيش الكثير.

obeikandl.com